

الأنفيس الميته لجوجل

بفلم : الأستاذ أحمد رشاد

شخصية الكاتب :

تمتع نيقولا فاسيليفتش جوجول بمجد عريض في حياته ، حتى رفعه بعض المعجبين به ، المتحمسين له ، الى مرتبة شكسبير وهوميروس . ولا غرو ، فقد حملت فترة من تاريخ الأدب الروسى امتدت من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٥٠ : بعد موت هذا الكاتب ، اسم (فترة جوجول) .

ولقد تفرقت آراء النقاد بعد ذلك ، ازاء أفكاره ومعتقداته ولاسيما بالنسبة للدور التاريخى والاجتماعى الذى قام به ، فاعترف له البعض بقوة الخلق والابداع والشجاعة فى الجهر بالحق ، بينما رأى فيه البعض الآخر أدبيا صور كائنات مسكينة ضعيفة مذرية أضاعت معالم روسيا الحقيقية . بيد أن جميع النقاد اتفقوا على انه صاحب الفضل فى بعث النثر الأدبى القومى الواقعى ، بعد أن خلصه من شوائب رومانسية متداعية ، وفى نقد المجتمع الروسى عن طريق الكوميديا الهادفة

بمسرحيته المسماة المفتش (Revizor) وفى تحرير الأدب الروسى من تأثير أفكار أدباء الغرب ، وفى توطيد الأسس الصحيحة للقصة التى سار على منوالها كثير من مريديه فارتفعوا بها الى مرتبة الكمال .

ولابد لمعرفة جوجول ، وفهم مؤلفه . من معرفة وفهم طبيعة الأرض التى ولد عليها وارتبط بها : وعقلية سكان تلك الأرض وسجاياهم .

فجوجول من أكرانيا ، البلدة التى تسطع فيها أشعة الشمس أكثر اوقات السنة ، البلدة التى اشتهر أهلها بالمزاج المبتهج ، والدهاء ، والصوت الجهورى والضحك الرنان ، ولكن أكرانيا هى أيضا بلد الوديان الخضراء ذات الأطراف المترامية التى تشحذ الخيال وتبعث على الأحلام ، والتى لا تتوانى فى قلب السرور - ذلك الزائر الطارئ - الى قلق وضجر ، ويقول جوجول عن أهل بلاده : « ان هذا الشعب يفرغ سروره فى أناشيد يشوبها شيء من الحزن »

مغاوير هم القوزاق نواة الطبع الروسى وزهرته
المتفتحة » .

ويظل جوجول مستمرا فى وصفه هذا لهؤلاء
الرجال الأبطال البواسل حيث يقول :

« ان التاريخ يعلمنا كيف انقذوا أوروبا بحياتهم
المضطربة وصراعهم المستمر ، من الاغارات الغاشمة
التي كانت تهدد أهلها بالابادة . وخلف ملوك بولندا
على هذه المساحات الشاسعة ، طبقة الأمراء الذين
فهموا - رغم ما كانوا عليه من ضعف ومقام بعيد
أهمية قوة القوزاق والافادة من طبيعتهم الحرية
المتردة ، فراحوا يقدقون عليهم الثناء والاطراء
ولم يكن الرجال القوزاق فى الواقع جيشا نظاميا ،
ولكن كان فى استطاعتهم أن يجمعوا أنفسهم عند
قيام الحرب فى مدى أسبوعين بخيولهم وأسلحتهم
الأمر الذى لا يقدر عليه غيرهم من المقاتلين . ومتى
ما وضعت الحرب أوزارها ، عادوا الى الحقول
والبرارى ، أو الى صيد الأسماك من نهر « النير »
أو الى الاشتغال بالتجارة أو صناعة الجعة ، أى
يعودوا قوزاقين أحرارا . وهذا مادعا المعاصرين
الأجانب الى الدهشة من كفاءة هؤلاء الناس
الذين مارسوا كل المهن وبرهنوا على قدرتهم على
القيام بكل الأمور التي تسند اليهم .

ثم يصف لنا جوجول بعد ذلك ، المراعى
الشاسعة فى أسلوب شاعرى يطرب له الروس :
« لا تستطيع الطبيعة أن تمنح الانسانية منظرا
أجمل من هذا . كانت الأرض تشبه المحيط الذى
يقذف مافيه من زهور . وانك لترى النوار الأزرق
والأحمر والأبيض يبرز من ثنايا الحشائش المتوجة
واتتشار نبات الرتمة برؤوسه العوالى على شكل
هرمى ، وانك لتجد سنبلة قمح ، لا يدرى الانسان

ثم أن جوجول ينحدر من أب انخرط فى سلك
(القوزاق) وهم طبقة أولئك الفرسان المشهورين
بالقوة والشجاعة المحبين للحياة فى الهواء الطلق ،
التواقين للحرية ، المناضلين ضد التتسر والأتراك
والبولنديين . كان أبوه منخرطا فى فرقة القوزاق
الزابوروجيين - نسبة الى مقاطعة زابوروج
المجاورة لمساقط مياه نهر النير وجل رجالها من
المغامرين الرحل والعبيد الهاربين الذين توارث
صدورهم الثورة وحب كل ماهو بهيج وغريب ،
رجال اعتادوا تسوية النزاع لاجحة الكلام ولكن
بحد الحسام .

ويعطينا جوجول فكرة واضحة عن القوزاق فى
شعره المنشور فى قصة « تاراس بولبا » التي تفوح
منها رائحة الحماسة ، ويصف لنا تلك الأراضى
الشاسعة المخضرة التي يجوس خلالها أولئك
الفرسان بحثا عن عدو يكون ندا لهم يشتبكون
معه .

ويقول عن بطل قصته الذى لا يحلم الا بالنزال
والقتال « كان بولبا عنيدا الى أقصى حد ، الى
جانب بعض السجاييا التي لا يعرفها الا من عاش فى
شداد القرن الخامس عشر الذى خلق فى هذه
البقعة من أرض أوروبا أناسا نصف رحل ، بينما
كان جنوب روسيا متروكا بين أيدي الأمراء عرضة
لغزوات المغول الذين لا يعرفون الهوادة ولا الرحمة

« واذا كان الرجل من القوزاق لا يملك دارا
ولا نارا ، فانه قد تسليح بالشجاعة والبسالة . وكان
وجودهم الدائم تحت نير جيرانهم الاجلاف الأقوياء
خطرا تعودوا على الصمود أمامه دون ما خوف
أو وجل . وهكذا تحولت العقلية المسالمة السلافية
الى نار مشتعلة من هؤلاء الرجال المسالمين ، محاربين

من أين جاءت ، قد امتلأت بالحبوب تزهو بين الأعشاب ، بينما يمد الدجاج البرى عنقه ويندس بين سيقان النبات الرفيعة . وتشبع الهواء بنغم العصافير وما أكثر أنواعها وأشكالها . وانك لتشاهد نسرا قد تعلق فى جو السماء فاتحاجناحيه مستقرا فى مكانه وهو يحدث الى العشب . وانك لتسمع صوت الأوز البرى يدوى وسط بحيرات بعيدة ، فما أجملك يا أيتها البرارى الشاسعة !»

وبعد أن يبدى لنا جوجول اعجابه بهذه الأرض التى ولد عليها ، يتحفنا بوصف الليل : « عندما يحين المساء ، ترتى أشعة الشمس فى آخر النهار على هذه البقاع ، ثم تنسحب عنها رويدا رويدا، ليحل محلها الظلام ، فيكسبها لونا أخضر قاتما .. ثم تفوح روائح الزهور بقوة ، فيملأ عبيرها المنطقة . يبدو أن السماء بزرقها القاتمة قد تركت ريشة الرسام تخط فيها خطوطا ذهبية وردية . ويرى الناظر الى السماء ، الغمام الأبيض الشفاف موزعا هنا وهناك ، يدفعه النسيم برفق ، مداعبا فى الوقت نفسه الوجنات والخدود ، وهنا تصمت أصوات الموسيقى الصباحية لتترك الجو لسمفونية من نوع آخر تنبعث من أفواه شتى الحيوانات ، فتتردها أجواء تلك البقاع ، يتخللها صفير أنواع الحشرات وأصوات البجع » .

واذا كانت قصة (ناراس بولبا) تسحر سامعيها بما فيها من جمال الوصف وحوادث القتال وتصوير القوزاق فى مغامراتهم الحربية وشجاعتهم وبسالتهم وروح التضحية عندهم ، الى جانب وحشيتهم وتهورهم وعصيانهم وثوراتهم ، نان جوجول قد وصف أيضا فى أول مجموعة لقصصه التى أسماها « سهرات الكوخ » الحياة فى اكرانيا

وعادات أبنائها وأخلاقهم ، الى جانب خرافاتهم وأساطيرهم التى لم تنقرض كلها بعد ، رغم قيام الثورة البلشفية .

ان جوجول ذلك الرجل المنطوى على نفسه، القلق ، الغريب فى أطواره ، الغامض ، الضئيل فى جسمه ، الخجول ، ذو السحنة الماكرة ، والشعر المنبسط الطويل ، والأنف الكبير ، والعينين الثابتتين المستديرتين كعيني الطيور الجارحة ، كان يبدو غريبا على وجه الأرض . كان معجبا بالنساء بقدر خشيته منهن . كان يصفهن الى أصدقائه كمخلوقات شفافة هوائية ساحرة جذابة قد وضعها الله فى طريقه ، ولكنه حذرهم من الوقوع فى حبالهن . ان هذا الوصف فى اعتقادنا ليس الادعابة منه بلا شك ، فانه فى الواقع لم يعرف كيف يتكلم عن الحب ولا أن يخلق بطلا مليئة بالحياة والاغراء.

ظل جوجول طيلة حياته متبرما ، منعزلا عن الناس غير متضامن مع من حوله ، فلقد عاش أستاذا بعيدا عن زملائه وطلبته ، وكاتب مشهورا بعيدا عن الندوات الأدبية ، بل لم يكون مريدين له ، ولم يتخذ زوجة ولا مأوى ولا أصدقاء ولم يعرف المغامرات العاطفية . انه كان رجل العزلة المروعة بمعنى الكلمة . لقد حصل على وظيفة فى احدى الوزارات ، ولكن سرعان ما تركها رغم حاجته اليها، وحصل على كرسى التاريخ فى الجامعة ، ولكنه لم يحاول الاحتفاظ به ، وكتب رواية طويلة ، ولكنه لم يصل بها الى الهدف الذى أراده . لقد ارتفع فى كتاباته الأدبية الى أوج المجد ، ولكن هذا المجد لم يسره ، فراح يبحث عن مجد آخر فى مجال غير مجال مواهبه .

ولما كان جوجول يجمع بين الكبرياء والتواضع،

منهم الجبناء والطغاة ويقلل من قوة ارادتهم ويزيد في اطماعهم. ربما أحس جوجول ، قبل وفاته بعشر سنين ، بطبيعة السوء الذى كان متفشيا فى بلاده ، ولكنه كان فى ذلك الوقت مثقلا بالقلق الدينى ، تأنها فى نظريات وهمية . ولذلك لم يظهر لنا كمصلح اجتماعى وانما كداعية لمكارم الأخلاق بطريقة سطحية غامضة غير كاملة تقوم على القاء الخطب التى لاتنفع ولا تشفع وعلى نصائح لواتبعت لأخرت روسيا بدل السير بها فى طريق التقدم.

ان الخطأ الأساسى الذى وقع فيه جوجول هو محاولته ايجاد تقارب بين مستلزمات الفن ومكارم الأخلاق ، اذ فاته انه لا يوجد أى تقارب بين الفنان والمربى ، بين الحياة الرتيبة الهادئة التى يتطلبها هذا وحياة الخيال المضطربة التى يعيشها ذاك . وكلما أطاح جوجول بخياله وراح يستخلص التفاصيل المعنوية التى يتحلى بها الأفراد أو التى تنبثق عن الأحداث ، لمعت عبقريته واستحوذ على قرائه ، أما عندما توغل فى الشئون الدينية وانكب على الوعظ والارشاد ، اضمحلت موهبته وجعل القراء يملونه .

هذا للأسف ماحدث له فى أواخر سنى حياته القصيرة على كل حال . لقد داعبته القداسة فحاول أن ينتزع من نفسه ومن أفكاره الناحية البهيمية ، حتى خيل اليه أنه النبى المرسل لاصلاح الشعب الروسى . ان هذا الطريق الذى سار فيه وغاص الى ركبتيه لم يوصله الى الفشل فحسب ، بل كاد يقضى على سمعته وصيته كروائى وقصاص . وضاعت حلقة العزلة عليه وأصبح دوره كمرشد وهاد للانفس موضع سخرية الى أن حانت الساعة التى اختل فيها توازنه النفسى ، فقضى على حياته وعبقريته .

فقد خرجت مؤلفاته خليطا من السخرية والسذاجة . فانه بالرغم من أذ الشخصيات التى تعيش فى مؤلفاته خليطا من السخرية والسذاجة . فانه بالرغم من أن الشخصيات التى تعيش فى مؤلفاته عجيبة ومبتذلة ، ودميمة وديئة ، فانه لم يكن ليهينها أو يزدريها ، ولم تكن هذه الأشباح ولاتلك الرمم لتوحى اليه بالاشمئزاز أو النفور . وانه اذا انهال عليها بالسخرية والنقد اللاذع ، فانه يترك نصيبا من الرأفة والحنان لهذه المخلوقات الساقطة . انها « مادة الضحك من خلال الدموع » التى غالبا ماكان يلجأ اليها وتظهر لأول مرة فى قصته «أسرة من العهد الماضى» .

لقد استطاع جوجول الناقد الفذ أن يكشف اللثام فى « المفتش » كما فى « الأنفس الميتة » ، عن تطرف البيروقراطية الروسية ورذائل الحكم القيصرى . وانها لشجاعة منه فى عصر ميسمه الظلم والاستبداد . بيد أنه لم يصف الدواء الناجع لهذه الأدواء .

صحيح أنه أوصى « باصلاح الأنفس » ولكن الاكتفاء بهذه الوصية مع اهمال اصلاح النظم الفاسدة ، أمر فيه مايعوق قلم كاتب ذى ضمير .

انه لم يصل فى الواقع الى الأسباب الحقيقية للفساد الموجود فى روسيا وقتذاك ، لأنه لم يكلف نفسه بدراستها بعناية . ولا مبالغة فى القول بأن فكرته عن المجتمع هى الفكرة البدائية الموروثة عن حياة القرية التى عاش طفولته فيها . ولقد جعل من نظرية جان جاك روسو عن الطيبة الموجودة أصلا فى الانسان ، نظريته الخاصة فى أهل بلده : فالروس عنده ، بصفة عامة ، يولدون طيبين ولا يغيرهم الا الوسط الاجتماعى الذى يعيشون فيه ، فيجعل

ولد جوجول في ١٩ مارس سنة ١٨٠٩ بسوروتشنزي بمركز ميرجورود بمقاطعة بولتافا .

وقضى طفولته في أملاك أسرته وكانوا من صغار الملاك الزراعيين المحافظين على تراث القوزاق القدامى . نشأ في حجر والديه مدلا ، فشب عصبى المزاج ، مرهف الحس ، عزيز النفس ، الى جانب صحة معتلة ضعيفة .

واذا كان الصبي معجبا بأبيه وبالتأليف الكوميدي الخفيفة المستقاة من الواقع الأوكراني ، وإذا كانت قصص البطولات الخيالية التي كان يقصها جده عليه ، قد انطبعت في مخيلته ، فإن ورع أمه قد أثر على تكوينه الروحي تأثيرا كبيرا حتى ورث عنها الرأفة والقلق الصوفي .

وبعد أن أتم دراسته الابتدائية في منزله على يد مرب ، ألحقه والده بالقسم الداخلي في ليسيه نيجين ، وكان عمره وقتذاك أحد عشر عاما . وبالرغم من ذكائه المتوقع ، فقد كان يستسلم للاحلام والعزلة . كان تلميذا قليل الالتباه ، غير مثابر ، طائشا ، ولكنه كان مجبا لقراءة الأدب الأجنبي الى جانب هيامه بالمرح : فلم تفته مسرحية مدرسية واحدة الا ومثل فيها ، كما أنه كلف بالاشراف على مكتبة المدرسة . وظهر أول إنتاج أدبي له في المجلة المدرسية المسماه « الشهاب الأدبي » . وكان يهتم بالقصص والقدح والقصائد الأسطورية والتراجيديا .

واستيقن رويدا رويدا من موهبته : رأى نفسه مخلوقا آخر ذا طبيعة فريدة قد اختصته يد القدر

بمهمة سامية بدليل أنه كتب يقول : « انى أشعر بقوة كبيرة تدفعني الى القيام بمهمة نبيلة من أجل صالح وطني ورفاهية اخواني المواطنين .. ولقد رأيت ملاكا يناديني من السماء ويكلفني بالسير قدما نحو الهدف الذي انشده » ، هكذا بدأت معالم الصوفية تظهر على هذا الشاب في هذه السن المبكرة كما ظهرت عليه روح السيطرة .

وفي سنة ١٨٢٥ مات أبوه . وبعد ثلاث سنوات استكمل دراساته وارادت والدته أن يظل بجانبها ولكن حياة القرية لم ترقه وأحس برغبة شديدة نحو اكتشاف العاصمة الروسية ، فقد ظن أن تحقيق مآربه الكبيرة من أجل وطنه ومن أجل شهرته لا يكون الا في مدينة كبيرة . كان الشاب مليئا بالآمال والطموح ، تدور في رأسه آلاف المشاريع التي يرى فيها نهضة أمته .

وعندما أبحر الى بطرسبرج في سنة ١٨٢٨ ، ظن أنه قد وصل الى النجاح والسعادة والمجد . ولكنه منى بخيبة الأمل وصدم بالحقيقة المرة ، اذ لم ينتبه اليه أحد ولم يكن موضع اعتبار من أحد لقد وجد الأبواب موصدة في وجهه والأهالي يعيشون على هامش الحياة والمناخ شديد عليه . وجد نفسه في هذه المدينة الكبيرة وكأنه في صحراء . فانكب على الشعر لينسى فيه آلامه ، وألف قصيدة نشرت تحت عنوان « هانس كوشلجيرتن » قلد فيها كبار الكتاب الألمان ، ولكنها لم تلق النجاح المنشود ، فسحب جوجول نسخها من المكتبات وحرقها .

وأمام هذه الهزيمة التي فالت من كبريائه ، قرر ترك روسيا . فقصد ألمانيا ولكنه بعد أن تعب من تجاوبه في طرقاتها ، عاد أدراجه الى بطرسبرج

راضيا بأى شئ ، فالتحق فى وظيفة كاتب القيد فى وزارة الأملاك الأميرية حيث ظل فيها سنة واحدة . ولكن اتصاله بهذه الوزارة أفاده بعض الشئ حيث وقف على الحياة البئيسة التى يعيشها الموظف الصغير ، فكانت بمثابة نبراس له فى كتابة قصصه ولا سيما قصة « المعطف » .

حاول أن يجعل من نفسه ممثلا مسرحيا ولكن صوته كان ضعيفا فحال دون تحقيق أمنيته . ثم عين مدرسا فى مدرسة بنات النبلاء ولكنه لم يرتج فيها . وفى هذه الأثناء تعرف على بوشكين الذى كان فى أوج مجده ، فأعجب به واتخذة مثالا له ، وأسر الى هذا الأديب الكبير أنه بصدد تأليف قصص مستقاة من صميم الحياة الشعبية . لم يكتب بوشكين بتشجيعه فحسب ، بل وعده بمساعدته وبتزويده بنصائحه .

وفى سنة ١٨٣١ ، نشر جوجول أول مجموعة من قصصه تحت عنوان « سهرات الكوخ » . ولاقت كل تقدير ونجاح من الأوساط الأدبية ومن عامة الشعب . وهكذا اشتهر اسم جوجول بين عشية وضحاها . لقد تضمنت هذه القصص ملامح من الأخلاق الريفية والمناقشات الساذجة والأساطير والأمثال والاغاني الاكرانية . ولم ينس عند ذكره للقرى والريف أن يصبغها بخيال أوسع ومثل عليا وسمو روحانى ، بما فيها من أدوار شيطانية وهزلية وسحر وسكر وعريضة تمر كلها أمام أعيننا المندهشة ثم يضى عليها مسحة شعرية تظهر ذلك الجو كما تظهر أشعة الشمس السماء من الغمام .

واكتشف بوشكين فى جوجول الأديب المدافع عن الفن القومى ، عن الفن الشعبى العارى من كل شائبة غريبة ، الفن المعبر عن خلجات النفس

الروسية ، فقال عنه : « هذه هى الملامح الصحيحة الخالية من كل تكلف ومن كل زخرف ! ما أجل هذا الفن المثوب بالأحاسيس والشعور ! انه تجديد فى أدبنا تطرب له نفسى ! »

وبدأت الحياة تبسّم فى وجه جوجول ، وبدأ يشعر بالسعادة ، فقد أحرز النجاح المنشود وظفر بمؤازرة بوشكين له الى جانب نيّله شعبية كبيرة ومع ذلك فقد شعر بأنه خلق ليكون مؤرخا لأدبيا فتقدم فى سنة ١٨٣٤ بترشيح نفسه لكبرى التاريخ بجامعة كييف رغم أنه لم يكن حائزا لأية اجازة جامعية ، بيد أنه حصل على كرسى تاريخ القرن الأوسط فى جامعة بطرسبرج بفضل مساعى بعض أصدقائه من ذوى المكانة . ولكن معينه التاريخى نضب بعد بعض المحاضرات وضاق الطلبة به ذرعا . ومع ذلك ، فقد ظلت مادة التاريخ تهيم عليه الى درجة جعلته يقول لأحد زملائه :

« ان أهم مايشغلنى هو تاريخ العالم ، أما ماعداه فمسألة ثانوية بالنسبة لى »

وعزم على كتابة تاريخ روسيا الجنوبية ولكن اتضحت له بعد وقت قصير عدم قدرته على أداء هذه المهمة . والواقع أنه لم يكن لديه الصبر والمثابرة على البحث فى الوثائق والمستندات التاريخية . وعلى هذا فقد ترك كتابه عن تاريخ روسيا كما ترك التدريس فى الجامعة لاضراب الطلبة عن سماع محاضراته ، ونراه يقول ، وقد خف عن كاهله ثقل التدريس وكتابة التاريخ : « ها أنا أعود قوزاقا حرا ! »

ولحسن الحظ لم يمنعه هذا التشعب المؤقت الذى سار فيه دون روية من متابعة أعماله الأدبية

ففى سنة ١٨٣٥ نشر « ميرجورود » و « الزخارف »
تضمن الكتاب الأول أربع قصص . الأولى للبطل
« تاراس بولبا » ، والثانية خيالية عن الفتاة « فيى »
(Vii) والثالثة « الشقاق » ، والرابعة
« أسرة من العهد الماضى » . وتعلق هذه القصة
الأخيرة بزوجين من صغار الملاك يقضيان حياة
ذليلة تعيسة خالية من الأولاد والأصدقاء والمثل
العليا . أما قصة « الشقاق » ، فتصف لنا كعنوانها
صورة نزاع قام بين صديقين قديمين أفضى الى
وقوفهما أمام ساحة القضاء فى مشاكل لا نهاية لها .
وأما « فيى » ، فهى فتاة جميلة الطلعة تشتغل بالسحر
للاضرار بالمعجبين بها . وأما « تاراس بولبا » فيمثل
الكفاح الوطنى والدينى بين القوزاق وبين
البولنديين الذين كانوا يحتلون أكرانيا فى القرن
الخامس عشر . والبطل من النوع الأسطورى
المغامرات له ولدان أحدهما يموت فداء للوطن
والثانى يخون الوطن اشباعا لهوى فى نفسه . وتجد
هذه القصة الغنية بأحداثها التى تهز المشاعر
ومواقعها الحرية المثيرة قد رسمت صفات التوحش
والجراة والاقدام للمجتمع القوزاقى ، حتى يخيّل
للقارئ أنه يعيش وسط هذه البطولات
والاضطرابات الدامية . ونلاحظ فى آخر القصة
أن تاراس بولبا يهيب بروسيا أن تحتضن شعب
القوزاق وتهب للانتقام له بعد فشله .

واذا تصفحنا « الزخارف » وجدناها تضم
الى جانب بعض مقالات انتقادية وتاريخية ، ثلاث
قصص : « الصورة » ، ويوميات مجنون ،
وميدان نيوسكى » وتتلخص القصة الأولى فى
فنان أصيب بلوثة فى عقله من صورة لرجل مراب
مات من زمن بعيد ولكن تأثيره لا يزال ينبعث من
خلالها . ثم ينتحر هذا الرسام بعد أن يخسر ثروته

وينسى فنه . وحاول جوجول فى « يوميات
مجنون » أن يتتبع رجلا انهار عقله شيئا فشيئا .
فبطل القصة موظف مرهف الحس يميل تدريجيا
الى العزلة فتجده الى القلق فالبؤس . ثم يصاب
بجنون الكبرياء ، فتضيع كرامته وعقيدته ويصبح
كالوحش الذى وقع فى فخ وأخيرا يريد الكاتب
وهو يعرض علينا القصة الثالثة ، أن يرينا التنافر
القائم بين الحياة والحلم : ففى احدى الأمسيات
يتقابل رسام مع امرأة جميلة للغاية يقع فى هواها ،
ثم يعلم بعد ذلك أنها من بائعات الهوى الرديئة
النفس . وفى خلال هذه القصة ، يسخر جوجول
من مدينة بطرسبرج التى لا يجها أكثر الأدباء لأنها
السبب فى عرقلة نشاطهم بقوانينها المقيدة لحرية
الفكر . ويصف جوجول حيامن أحياء هذه العاصمة
هو ميدان نيوسكى الذى تفوح منه رائحة الكذب :
« ان هذا الميدان يموت فى كل ساعة من ساعات
النهار والليل ولاسيما عندما يخيم الظلام على
أرضه ويفشى جدران دورها الصفراء والبضاء ،
وعندما تمتلئ المدينة بالرعود وعندما يوقد
الشیطان مصباحه فيكسو نوره الناس والجماد
بالوهم والخداع » .

وفى سنة ١٨٣٥ و سنة ١٨٣٦ ألف جوجول
« العربية » و « الانف » و « المعطف » واذا كانت
« العربية » مغامرة تافهة ، فقد قصها فى حيوية
كبيرة . واذا كان الضابط كوفاليوف يفقد أنفه
فبحث عنه دون جدوى فى كل مكان فقصته غير
معقولة كالواقع الذى نعيش فيه أما « المعطف »
فانه فتح جديد فى ميدان القصة . ولقد أثرت تأثيرا
بليغا على ممارسى الأدب فى ذلك العصر حتى قيل
بحق ان كبار الروائيين الذين جاءوا بعد جوجول
قد خرجوا من المعطف ومن بينهم دستوففسكى

وتورجينييف . وتتلخص الحكاية فى موظف بسيط يعيش حياة لابهجة فيها يحرم نفسه من كل شىء ليدخر المال اللازم لشراء معطف . وعندما تتحقق أمنيته الغالية هذه يهجم عليه بعض اللصوص فينتزعون المعطف منه . ويمثل بطل هذه القصة تفاهة الحياة والبؤس الذى تعيش فيه البشرية .

وكل هذه القصص التى لخصناها فى اقتضاب كبير لضيق المكان هنا ، ليست الا خليطاً من مرارة العيش والخيال المشوب بالغموض والرعب والفرع .

وصل جوجول فى هذا الوقت الى منح هام من حياته ومن أدبه : فأراد أن يشق طريقاً آخر حيث يقول فى « اعترافات مؤلف » التى كتبها فيما بعد : « أن كل تجاربى الأدبية كانت من النوع الجدى الشاعرى . ولم أكن أتصور ولا أصدقائى فى المدرسة أننى سأصبح فى يوم من الأيام كاتباً هزلياً وناقداً لاذعاً وان كنت رغم طبعى الحزين أميل كثيراً الى مداعبة الناس الى حد المضايقة » وسيشبع جوجول هذه الرغبة وسيلجأ الى الفكاهة ولكن لا لمجرد تسلية القارئ : بل أراد تثقيفه فى الوقت نفسه ، ويريه روسيا بأوزارها ورذائلها وظلمها ، وانها تستحق مصيراً أفضل من مصيرها الحالى . وسنرى جوجول وهو يمعن فى وصف أناس تافهين مبتذلين ، ولكنه سيحاول أن يخرج من هذه التفاهة وذلك الابتذال تعاليم وحكما وعبرا تدعو الى ضرورة اجراء عملية تطهير واسعة واصلاح فى البلاد .

واتجه جوجول بايعاز من بوشكين الى المسرح الذى كان يميل اليه . فألف مسرحية « المفتش » وهو نداء الى حياة جديدة فى نقد اجتماعى لاذع ضد النظام الامبراطورى انقائم على الرشوة والاستبداد فى الإدارات والمصالح الحكومية .

لقد هدف جوجول الى تزويد بلاده بمسرح قومى بحث خال من كل تقليد أجنبى . ونراه يقول فى ذلك : « أعطونا شخصيات روسية صميمة فالمسرح ليس الا مدرسة كبيرة ذات هدف سام . فالمسرح يظهر العادات وما فيها من محاسن ومساوىء ويرز الفضائل وأثرها فى الشعور الانسانى » ولقد اختار الكوميديا لاقتناعه بأنها خير وسيلة لاظهار عيوب المجتمع ونقائصه ، وان الضحك هو خير وسيلة للوصول الى تربية وتثقيف المجتمع الروسى واصلاح سلوكه واخلاقه .

وبطل هذه القصة شاب موظف فى بطرسبرج يدعى كليستاكوف أراد أن يمضى اجازته مع أسرته التى تقطن الريف . وما ان يصل الى قرية من القرى فى طريقه حتى يتضح له أن نقوده قد نفذت ، بيد أن منظره أوحى الى أعيان هذه القرية بأنه أحد المفتشين المتخفين ، فراحوا يتهمون بعضهم البعض أمامه . وحتى المحافظ راح يسترضيه ويعرض عليه المبيت عنده ، وبدأ الفتى يقص مغامراته ويفازل زوجة المحافظ وابنته . وانهال عليه المال من كل جانب فأخذه وهرب فى ذات ليلة ، ولكن قبل انتهاء الرواية أراد جوجول أن يحتفظ لجمهور المشاهدين بمفاجأة : فقد حضر جندى الى المحافظ وهو جالس مع الأعيان فى غرفة الاستقبال وصاح قائلاً : « ان الموظف الكبير الذى جاء من بطرسبرج بأمر من حكومة الامبراطور يدعوكم الى الاجتماع فى الفندق الذى نزل فيه ! » ويصمت الجميع وكأن الطير على رؤوسهم . ويقول جوجول : « لقد أردت فى مسرحية المفتش أن أجمع كل ماعرفته عن روسيا من شوائب ونقائص ورذائل وظلم ، وان أمزج كل هذا بالسخرية »

مثلت هذه المسرحية وشهدها القيصر نيقولا الأول في ١٩ ابريل سنة ١٨٣٦ وسر منها كثير اوقال لمن حوله : « لقد تصدت لنا بالنقد ونصيبى منه كبير وعلى وزرائى أن يستفيدوا من هذا الانتقاد » وتدل هذه المسرحية بأحداثها ومشاهدها التى جرت بمهارة ، على سمو فن جوجول وامتلاكه لخطام مهنته تماما . وبالرغم من نجاحها ، فقد استهدفت لهجوم عنيف من جانب الرجعيين الذين أجمعوا على أن القرية والأشخاص فى هذه القصة لا وجود لها فى الواقع ، وانما هى من بنات أفكاره . ودفع هذا الهجوم جوجول الى أن يسر للمشمل الأول فى المسرحية بهذه الجملة : « لقد تكتلوا كلهم ضدى وعرفت الآن ما يكتنف موقف الكاتب الهزلى من خطر . فمتى ما أشار الى الحقيقة ، هاجمه الناس على اختلاف طبقاتهم ، وانى أقسم لك أن ما أشعر به من ألم لا يستطيع تقديره أحد غيرى ! لقد سئمت الحياة » ثم هجر المسرح ست سنوات بعد هذه التجربة ليعود اليه بمسرحيتى : « الزواج » و « المقامرین » ، وليس فيهما ما يعتبر فريدا من نوعه .

حزت هذه الانتقادات الجائرة فى نفس جوجول الذى قرر ترك روسيا على أثر شعوره بانهايار عصبى كاد ينال من صحته . وازداد هذا المرض عليه يوما بعد يوم ، وتنقل فيما بين مايو سنة ١٨٣٦ وأكتوبر ١٨٤١ بين ألمانيا وسويسرا وفرنسا وايطاليا ، ولكنه مكث فى روما أطول مدة لأنه أحب هذه المدينة حبا جما . وبدأ قبل هذا النفى الاختيارى ، فى كتابه « الأنفس الميتة » ، وعرض نبذات منها على بوشكين الذى توفى بعد ذلك بثمانية أشهر وهو فى ريعان شبابه على أثر مبارزة .

وراح جوجول خلال اقامته فى سويسرا ينقح الأبواب الأولى من « الأنفس الميتة » وهو يقول فى ذلك لصديقه بوجدوين : « حان الوقت للعمل الجدى ، وعلينا أن ننظر الى الأجيال المقبلة لا الى معاصرنا البائسين . والكتاب الذى أقوم بتأليفه الآن يتطلب منى عملا متواصلا ومثابرة ، ولن انتهى منه الا بعد وقت طويل ، وسوف يكون شيئا غير القصة أو الرواية أتناول فيه روسيا باكملها » .

وانتقل جوجول فى شتاء سنة ١٨٣٦ الى باريس ولكن الحياة فيها لم ترقه ، فراح يحكم على الفرنسيين بقسوة لانشغالهم بالسياسة أكثر من حياتهم النفسية . ومهما يكن من الأمر ، فجدده قد انكب على مؤلفه الجديد حيث يقول : « انى أكتب » « الأنفس الميتة » باهتمام وحرارة . ويلوح لى أنى لا أزال أعيش فى روسيا وأمامى الموظفون والملاك والضباط والفلاحون والقرى ، أى روسيا بأجمعها »

وترك باريس ليقیم فى روما سنتين امتزج خلالها بالأهالى وشاطرهم أعيادهم وتردد على مقاهى الأدباء ، وتعرف ببعض الروس الذين جاءوا ليتنهلوا من منابع الفن الايطالى . وبعد أن انتهى من الجزء الأول من روايته ، عاد الى روسيا فى أكتوبر سنة ١٨٤١ ليشرف على طبعه ونشره .

وحالت رقابة النشر فى روسيا دون طبعه لأن جوجول فى نظرها ينفى خلود الروح وينتقد الرق . وحاول جوجول جاهدا اقناع رجال الرقابة باعتقاده فى وجود الله وبوفائه للإمبراطور ، دون جدوى ، ولما لم يستطع اقناعهم عرض مؤلفه على رقابة بطرسبرج فصرحت له بالطبع ولكن على شرط ادخال تعديل على بعض فقرات وحذف أخرى .

وظهر المؤلف فى مايو ١٨٤٢ تحت عنوان :

على ابراز أشخاص أشرف فضلاء نبلاء فى أفعالهم وأخلاقهم يصورون روسيا فى جمالها المثالى . انه يريد تأليف ما يخلد به الطيبة والأمل ، وأن يبرهن على أن الايمان والشعور الطيب يستطيعان انقاذ البشرية من الرذائل والأفعال الخسيسة التى جاءت فى الجزء الأول من « الأنفس الميتة » .

عاد جوجول الى روما مرة ثانية ، وكانت صحته قد تدهورت كثيرا من أثر الهجوم عليه من أولئك الرجعيين من أهل وطنه . واتبته الآلام المعوية التى عزاها أطباؤه الى أزمت نفسية وعصبية ، وبدأ فى كتابة الجزء الثانى من « الأنفس الميتة » بجد ونشاط لينسى مرضه ، ولكنه لم يتقدم فى تأليفه تقدما ملموسا أو بالأحرى لم تتناسق أحداثه مع مزاجه كفنانه ، اذ وجد تنافرا بين ما أراد ابداعه وخلقه وبين ما يصوره قلمه ، بين الرجل المثالى الذى يريد أن يكونه وبين حقيقته كرسام واقعى للمجتمع الروسى البائس .

ولكن لنترك الكلمة لهنرى تروايا (Henri Troyat) الذى سيشرح خيرا منا آلام جوجول النفسية فى هذه اللحظة من حياته : « من هنا تبدأ المأساة الحقيقية لهذا الرجل الحائر بين موهبته وبين طموحه بين حياته وبين أحلامه ، بين هبة الله له وبين هبته لله . كان أستاذا فى التهكم والسخرية والنقد ولكنه عجز عن خلق الوجوه الظاهرة والأخلاق الحميدة »

وبدل أن يعترف جوجول بعجزه هذا ويسير وفق طبيعته أو يترك التأليف ، قطع صلته بعبقريته كفنانه ليكمل من نفسه مرييا ، وهو دور لا يصلح له ، دور خفض من قيمته كمبدع استرعى إعجابنا الى أن سار فى هذا الاتجاه الجديد . من الآن

«مغامرات تشيتشيكوف أو الأنفس الميتة » كان وقعه كالصاعقة . ٩. يتلخص القصة فى رجل ماكر راح يشتري أنفس الفلاحين المتوفين المقيدين كأحياء فى قائمة الاحصاء والتعداد ، ثم يرهنها مقابل مبالغ مالية . ويقول المؤرخ هرزن (Herzen) عن هذه القصة « انها هزت الامبراطورية القيصرية » ، واذا كان جوجول قد ادعى أمام رجال الرقابة بأنه لم ينتقد الرق ، فانا نراه قد هزأ فى الرواية بالملك الذين يعاملون رقيقهم دون مرحمة أو ضمير . واذا دهش بعض القراء من رؤية روسيا وقد ملأها جوجول بالبسطاء والتافهين والأشرار والأشقياء من الناس ، فان البعض الآخر هاجم الكاتب بعنف واتهمه بالتجنى على الحقيقة وان الكتاب ليس الا مجموعة من الكاذب والادعاءات .

والواقع أن جوجول نفسه أخذته الدهشة مما جاء فى مؤلفه ، فلم يكن يقصد الا المداعبة ولكن خياله الواسع وقوة التصوير عنده وبلاغته الفائقة أطلقت عنان قلمه ، فانقلب الحال من المداعبة الى النقد اللاذع المر ، وانقلبت أشخاصه الكاريكاتورية أغوالا وكائنات شيطانية : فقد كان وراء هذه الفكاهة هوة سحيقة من القلق والمأسى .

ويحاول جوجول أن يخفف عن قرائه ما أصابهم من الدهشة والاشمئزاز فينصحهم بالترث وعدم الحكم السريع عليه الى أن يظهر الجزء الثانى لروايته . فاذا كان الجزء الأول قد حمل فى طياته الخسة والتفاهة والدناءة ، فان الجزء الثانى سيجمل اليقظة والنهضة . أى أنه يعدهم بالنور بعد الظلام أو كما فعل دانتى فى كوميدته اذ بدأها بالجحيم وختمها بالفردوس . وفلا نزم جوجول

فصاعدا سيظن أنه فى حاجة الى اصلاح ذاته
ليستطيع انهاء كتابه على الوجه المرضى وظن أن
كلامه عن الناس الفضلاء يتطلب منه أن يكون مثالا
للفضيلة . ويقول فى ذلك : « ان مثل هذا النوع
من الأبطال لا ي اخترع ، ف طالما أنك لاتشبههم نوعا ما ،
وطالما أنك لم تصل الى التحلى ببعض الصفات
الحميدة وتشبع بها وتعمل بها ، فان ما يسيطره
قلبك يظل بعيدا عن الواقع وعن الحقيقة بعد
السما عن الأرض ، لابد من اصلاح نفسك أولا »
وعمد جوجول ، لاصلاح نفسه وتطهيرها من
ادرائها البهيمية ، الى التبعبد والى قراءة كتاب
« الاقتداء بالمسيح عيسى » ودراسة الاناجيل
والانكباب على التوراة والمؤلفات الدينية الروسية
وكان يشرب القهوة بين الحين والحين ليكون دائما
حاضر الذهن . وعمد الى أكثر من ذلك اذ طلب من
أصدقائه أن يعدوا له قائمة بالنقائص التى يرونها
فيه .

هل أنت هذه القراءات وتلك العبادات ومحاسبة
ضميره بالثمرة المرجوة ؟ لا ! بل اضمحل الهامه ،
وبحثه عن الرجل الفاضل الصالح المستقيم ذهب
أدراج الرياح . ومع ذلك نراه يتمادى فى صوفيته
وتعبده ، وتكفيرا عن الضرر الذى تركته مؤلفاته
السابقة - على حد قوله - أصدر فى ١٨٤٧ آخر
مؤلف له بعنوان : « مختارات من المراسلات
مع أصدقائى » ، يذكر فيه أنه سيعتزل الكتابة
ليبحث عن الحقيقة من أجل خلاص روحه وسعادة
البشرية . والكتاب عبارة عن وصية أدبية ولكنه
يحتوى أيضا على سلسلة من خطب دينية غير قيمة
تلقاها بالدهشة جمهور القراء والأوساط الأدبية .
فلقد اتخذ جوجول فيها سمة الفياسوف والمفكر

دون أن تكون له العقلية الفلسفية التى ترشد
النفوس ولا التفكير الواضح المنفع . فاتهمه
الكاتب الناقد المشهور ييلنسكى بأنه أظهر اذعانا
خسيسا تجاه السلطة الحاكمة حيث يقول عنه :
« لسنا فى حاجة الى المغالاة فى التبعبد ولا الى
الخطب الرنانة ، وانما نحن فى حاجة الى من يوقظ
فى الشعب شعوره بكرامته »

واذا كان جوجول قد تاق الى الحياة الروحية ،
فهذا من حقه تماما . ولكن امتداحه للنظام السياسى
والاجتماعى والدينى لروسيا فى عصره ، واطراءه
وتمجيده « للقيصر المحبوب » ولحكمه المطلق
وادعاءه بأن تعاليم المسيح تتفق مع حالة الفلاحين
الأرقاء ، لا يعتبر عيبا وخطأ كبيرا فحسب ، وانما
غلطة جسيمة تدل على انحراف الكاتب الكبير
عن « مهمته السامية » التى يعتد أنه مكلف بتحقيقها
وعلى نسيانه لرسالته عن الطيبة والجمال والأمل
التي وعد بها ! وكان النقاد على حق فى عتابه على
سلوكه كما فعل تورجينييف عندما نعت كتابه بأنه
« مزيج قبيح من الكبرياء والرياء والحماسة والاعجاب
بالنفس » .

أثر هذا العتاب الجماعى ، نوعا ما ، على جوجول
أيما تأثير . ونراه يعترف بضلاله عن جادة الطريق
فى قوله : « ثبت الى رشدى بعد هذه الصفة
التي أيقظتني من الحلم .. حتى لم تعد لى شجاعة
على أن أهتم بكتابتى »

وبعد زيارته للاماكن المقدسة التى كان يفكر فيها
منذ وقت بعيد ، أقام فترة قصيرة فى بطرسبرج
ثم استقر نهائيا فى موسكو . وكان ينزل عند
أصدقائه لأنه لم يكن لديه مأوى خاص طيلة حياته .
وبالرغم من العهد الذى قطع على نفسه بعدم

الكتابة، فقد حاول أن يتم الجزء الثاني من «الأنفس الميته» والذي سبق أن حرق مسودته مرتين .

ونراه يجتهد في اصلاح أخلاق بطل القصة نشيتشيكوف دون جدوى : اذ أنه لم يفلح في أن يجعل من هذا الرجل الخبيث رجلا فاضلا ، فسد على نفسه الباب من حيث أراد أن يفتحه ، ولم ينتبه جوجول أديبا فحسب بل وصحيا الى أن هذا الأديب الذى نشأ ضعيف البنية كان ينحف كل يوم من سوء التغذية لاكتفائه بالحساء وكسيرات من «الخبز المقدس» حتى أصبح هيكلا عظيما ، بل خيالا ، وانتابه الدوار والفتور . وفى أوائل سنة ١٨٥٢ تعرف براهب متعنت متعصب ادخل فى روعه ان الجسد مآله البلى ، والفن من أعمال الشيطان وكل ساعة يمضيها فى الكتابة يسرقها من حق الله ، ثم ينصح بقله : « اترك هذا العالم واترك الأدب واجعل من نفسك راهبا مثلى » .

وفى ليلة ١١ - ١٢ فبراير سنة ١٨٥٢ ، استيقظ جوجول فزعا وأمسك بلفافة كبيرة من الأوراق وأحرقها دون تردد . كانت ثالث محاولة لاحراق «الأنفس الميته» ومنذ هذه اللحظة وهو يرفض أى علاج وأى غذاء حتى مات بعد عشرة أيام . وسار فى جنازته حشد من الناس فى حزن ووقار أغلبهم من شباب المدارس . وسأل شخص مار فى طريق الجنازة من هو هذا الراحل الى مشواه الأخير ؟ فأجابه أحد الطلبة : « انه جوجول نسير به الى القبر ، فنحن وروسيا كلها نعتبر أنفسنا من أسرته »

وتساءل الناس زمنا طويلا عن السبب الحقيقى لموته : هل قضى نجه بحمى التيفويد ، أم على أثر الانهيار العصبى ، أم من طول امتناعه عن الغذاء ؟ ولكن ما الفائدة من البحث عن أسباب هذا الموت؟

ان هنرى تروايا يقول : « مات جوجول على أثر انفصال مؤلم بين جوجول كانسان وجوجول كفنان فإنه كانسان ، لم يكن راضيا عن الفنان ، ولم يكن الفنان ليرضى بالخضوع لارادة الانسان » . أليس هذا هو سبب موته فعلا ؟

بيد أننا نرى من واجبا أن نضيف هذا الحادث لأهميته : عندما اقترب من نهاية حياته، كان جوجول يمسك بالقلم ليكتب بضع كلمات على قطع صغيرة من الورق . وهذه الكلمات قد كتبت بيد منزنة حازمة : « كونوا أنفسا حية لا أنفسا ميتة ! »

ياالله ! ان الكاتب الكبير قد اتابته فترة صحو قبل أن يلفظ آخر أنفاسه !

تحليل أثره الخالد :

اذا كان جوجول ، كما جاء فى كتابه « اعترافات أديب » يقول بأن بوشكين هو الذى دفعه الى الشروع فى تأليف قصة طويلة مثل «دون كيشوت» واقترح عليه فكرة «الأنفس الميته» وأوحى اليه بموضوع «المفتش» ، فان الرسائل الأربعة التى حررها جوجول الى أشخاص حقيقيين أو وهميين ونشرت ضمن «مختاراته» هى التى ستسمح لنا بالوقوف على حقيقة الباعث على كتابة هذا الأثر الخالد ومعناه ومداه والهدف منه .

تكلم جوجول فى هذه الرسائل أولا عن الحالة الفكرية التى كانت سائدة فى روسيا فى عصره : « أينما ألقيت بصرى ، اكتشفت أن المكلفين بتطبيق القوانين هم الجناة . فهذا يرغب فى رفعة الصيت والحصول على شرف الرتبة ، فيؤدى مهمته على وجه السرعة ، استنادا على قدرته ومعرفته ومهارته وهذا عيب روسى ! وذاك يجد فى تنفيذ مشروع

دون دراسته بعناية ثم تشبط همته عند ظهور أول صعوبة في وجهه وتركه ، وهذا عيب روسي أيضا ! وثالث يترك مركزه المرموق لمن هو أقل كفاءة منه لشعوره بأن كرامته قد جرحت . وباختصار ، فنادر فينا وجود أولئك الذين يحبون الخير ويضحكون بطموحهم من أجله ويفرضون على أنفسهم خدمة البلاد لخدمة مصالحهم الخاصة ويضعون نصب أعينهم في كل لحظة أنهم يؤدون واجبهم ، لا من أجل سعادتهم فحسب ، وانما من أجل سعادة الجميع . ولكن يبدو منذ وقت قصير أن الروس يسمعون في اظهار انانيتهم ونزقهم »

ان هذه الأسطر كانت تصلح كمقدمة لرواية جوجول لأنها تشرحها كما تشرح وجود ذلك العدد من الأنفس الميتة في عصر نيقولا الأول .

ثم يحدثنا الكاتب بعد ذلك عن كنبه وأشخاصها ولا سيما عن طريقة كتابته : «لماذا رغم أني لم أصف كل ملامح أبطال قصصي الأخيرة ، وبصفة خاصة في « الأنفس الميتة » ، ورغم أنهم قليلو الجاذبية نعتاد عليهم ونألفهم ونستأنس اليهم كما لو كانوا ذوي ملامح ذاتية ؟ اذا كان ابطالى قرييين من القلب ، فلأنهم خرجوا منه . ان كل مؤلفاتي الأخيرة هي قصة نفسى . والذين حللوا طبيعتي ككاتب ، لم يتبينوا أهم سمة في طبيعتي كإنسان . وهذه السمة لم يلاحظها الا بوشكين وحده . ولقد قال عنى انه لم ير كاتباً مثلى تحلى بموهبة القدرة على اظهار مبادئ الحياة ودنائها ، ووصف تفاهة رجل حقير ، وايضاح أدق الأشياء التى لاتدركها الأبصار عادة . هذه هي موهبتى الرئيسية التى ولدت معى ونمت على أثر أزمة دينية »

ويجدر بنا أن نتساءل : ماهى نتائج هذه الأزمة الدينية ؟ يعترف جوجول لاحد الذين تراسل معهم بصراحة : « منذ ذلك الحين وأنا أضفى عيوبى على ابطالى . وها أنا أريك كيف أفعل هذا : كنت أختار عيبا من عيوبى ، ثم أتعقبه لدى شخص يختلف عنى فى الوضع وفى المهنة . وكنت أحاول أن أتصور هذا الشخص فى صورة عدو لدود أهانتى بقسوة ، فأصب عليه من عداوتى ومن سخرتتى ومن تهكمى . ولو أن أحدا رأى الأشباح ساعة خروجها من رأس قلمى لارتعدت فرائصه حتما . ويكفينى القول انى عندما قرأت على بوشكين الفصول الأولى من « الأنفس الميتة » فى نصها الأصلي ، وكان من عادته أن يضحك دائما وهو يستمع الى ، فاذا به يقطب حاجبيه ويبدو كظيم الوجه . وعندما انتهيت من القراءة صاح فى حزن : « يا الهى الى أى درك من التعاسة هبطت اليه روسيا » ودهشت لهذه الملاحظة . ان بوشكين الذى كان يعرف بلادنا حق المعرفة ، لم يلاحظ ان كل ما قلته كان مجرد ابتداء كاريكاتورى واختراع وعندئذ فهمت معنى العمل المنبثق من أعماق النفس وكيف يمكن اخراجه فى صورة مخيفة للقراء وفى جو مظلم مربع »

وأخيرا يعدد لنا جوجول الأسباب التى جعلت مؤلفه يشغل الناس ويصب عليه النقد اللاذع من معسكر المحافظين ومعسكر الاحرار : « اذا كانت «الأنفس الميتة» اربعت روسيا وتركت دوبا وضجة ، فلا يرجع ذلك الى انها كشفت عن العيوب والأدواء الداخلية ، ولا لأنها صورت الرذيلة منتصرة على البراءة المظلومة . لا ! ان ابطالى ليسوا على كل حال مجرمين . وكان يكفينى أن أضفى على أحدهم مسحة فكاكية ليرتاح اليها القارىء . ان

التفاهة التى ميزت بها أشخاص الرواية وأخلاقهم المبتذلة هى التى ثارت من أجلها القارىء . ان أبطالى يبدو الواحد منهم اثر الآخر فى صورة محقرة ويبحث القارىء دون جدوى عن صورة تنعشه ، أو مناسبة يرتاح لها ، وعندما يغلق الكتاب يشعر كأنه خرج من كهف فاسد الهواء الى نور النهار . وربما غفر لى الناس لو أنى وضعت لهم الأشرار فى صورة جميلة مستحسنة . ولكنهم لا يغفرون لى وصفى لنقائصهم وسفالتهم . لقد ذعر الرجل الروسى عندما رأى نفسه فى هذه الصورة العارية من كل مثل وآمال »

يتضح اذن أن طريقة جوجول تقوم على اخراج الواقع فى أبسط تفاهاته .. فالتفاهة وحدها هى الحقيقة فى نظره ، فهو ينتقى الأشخاص غير ذوى المكانة أو المثل -- وما أكثرهم فى الدنيا -- ثم يجعلهم يتكلمون ويفكرون على قدر عقولهم مع أصدقاء بعض الروثق عليهم فى شكل فكاهة أو سخرية أو نكتة . ثم تأخذه الشفقة على هؤلاء الأشخاص التافهين ، فيصف قلقهم عندما يتألمون ، ونصبهم أو خوفهم عندما يشعرون أن حبالهم وخذعهم قد انهار صرحها .

كان العبيد فى روسيا القيصرية مجرد أثاث أو سلعة تباع وتشترى . وكان من حق أسيادهم الذين يدفعون للحكومة عن كل عبد ذكر بالغ ضريبة مالية سنوية أن يبيعوه أو يستبدلوه بآخر أو يرهنوه . وكانت عملية احصاء وتعداد هؤلاء الفلاحين البؤساء تجرى فى فترات غير منتظمة ، فكان يحدث أن يظل المالك يدفع الضريبة من أجل عبيد ماتوا أو فروا هارين .

وبطل قصة جوجول يدعى بافيل ايفانوفينش

تشيتشيكوف ولا ينقصه الخيال ولا الذكاء ، ولا المكر ولا الدهاء ، فقال فى نفسه فى يوم من الأيام : « سأذهب الى المدن الخاملة فى روسيا واشترى بطن بخص الأنفس الميتة ، التى لاتزال مقيدة فى سجلات الاحصاء والتعداد ، من ملاك الأرض الذين سيفرحون لخلاصهم من هؤلاء العبيد والتالى من هذه الضرائب التعسفية . وسأحتسبهم فى عداد الأحياء . ثم أصدق على قائمة اسمائهم فى المحكة وأقدمها لمصرف مقابل قرض جسيم يسمح لى باقتناء فلاحين من لحم ودم لحرث الأرض واستثمارها .

« ويمكننى الحصول فى الوقت الحاضر على اراض فى الجنوب بأجر زهيد على شرط أن أستعلاها . وما على الا أن أجعل الفلاحين التابعين لى يقطنون فيها ويفلحونها ، وهكذا أصبح ذا ثروة طائلة » .

نرى عند بداية قراءة « الأنفس الميتة » ، شخصا يصل فى عربة انزلاق الى مدينة صغيرة ، يتبعه حوذى وخادم . ولا يعطينا جوجول عن هذا السيد الا معلومات عامة : فهو يسميه « مشتر » ويكتفى بقوله عنه : « لم يكن جميلا ولا دميما ، ولا بدينا ولا نحيفا . ولا يبدو كبير السن مع أنه ليس شابا » لقد تعمد جوجول أن يحرم هذا السيد من أية شخصية ، وتعمد فى اظهاره لنا بالرجل المجهول لكى يجعل منه رمزا لصورة روسيا غير المسؤولة عن تدهورها وعن حالتها السيئة التى آلت اليها من جراء الرشوة المنتشرة فى أركانها الأربعة .

وعندما يقيد بطل القصة اسمه فى الفندق يعلن بأنه رجل أعمال فى رحلة من أجل صفقات تجارية ، وهى خير وسيلة لجلب الأنظار اليه واحترامه فى هذه المدينة الصغيرة . وغنى صبيحة

اليوم التالي ، يذهب توا لزيارة المحافظ ومساعد
المحافظ ورئيس المحكمة والنائب العام ورئيس
الشرطة ومدير البريد الخ .. دون أن يضع وقته
في مشاهدة غرائب هذه البلدة المتواضعة لأن ممثلي
السلطة هؤلاء كانوا في نظره هم غرائبها . وكان
يكلم كل واحد منهم باللهجة التي يرتاح لها أى
يغدق عليه الاطراء . لذلك حكموا عليه فورا بأنه
رجل اجتماعى ذكى ومتفتح . ولكن تشيتشيكوف
لم يحضر فى هذه البلدة لينحني أو ليجامل أهل
السلطة فيها ، بل جاء لتنفيذ خطة فى رأسه . فبعد
أن انتهى من زيارة هؤلاء الرجال الرسميين ، كان
يهمه الاتصال بالملك العقارين المهيمنين على آلاف
الفلاحين . ولقد تقابل مع خمسة من هؤلاء الملوك
ويعطينا جوجول صورة عنهم لم يكن ينبغي من
ورائها الا مجرد السخرية ، فاذا به يجعل منهم
أشخاصا معدومي الفطنة ، منقادين لغيرهم ، تافهين ،
من أسماط البشرية . من هم أصحاب هذه الوجوه ؟
مانيلوف ، وهو رجل حالم غبى متخاذل ، ونوزدريوف
وهو نام متباه سكير ومقامر ، وسوياكفيتش وهو
متعجرف خشن الطباع شرس يكره الناس ،
الناس ، وكوروبوتشكا وهى امرأة عجوز حزينة
عنيدة غبية وحذرة ، وأخيرا بليوشكين وهو رجل
بخيل يطلقون عليه اسم «المرقع» .

ويؤدى تشيتشيكوف دوره اتجاه هذه العينات
من المخلوقات البشرية بمهارة ومرونة لامثيل لهما ،
وهو يتلون تلون الحراء ، فتارة يكون حازما
وطورا مجاملا وتارة أخرى لطيفا أو متعجرفا .
وكلمته تقنع أو تبلبل ، وحركته تطئن أو تهدد ،
وابتسامته تسحر أو تشل : انه منوم ، ساحر ،
صانع المعجزات !

ولكن لننظر اليه وهو يؤدى عمله كمشتري .
هاهو بصحبة مانيلوف الذى دعاه الى تناول الطعام
معه . ونراه جالسا فى مقعد وثير بعد وجبة شهية
راجيا صاحب الوليمة أن يعطيه قائمة بأسماء فلاحى
مزرعته المتوفين . فيسأله المالك الساذج : « وماذا
تريد من هذه القائمة ؟ » فيرد عليه تشيتشيكوف :
— تريد أن تعرف ؟ أريد شراء فلاحين .

— اسمح لى أن أسألك سؤالا :

— هل تريد شراءهم مع الأرض أو بدونها ؟

فيرد عليه بظننا فى ثبات :

— لا لاتتعلق المسألة فى الواقع بشراء الفلاحين
الأحياء وانما شراء الموتى منهم .

فيتنتم مالينوف قائلا :

— كيف ؟ لا تؤاخذنى ، فسمعى ثقيل . خيل الى
انى سمعتك تقول كلمة عجيبة .

— أريد شراء الأموات من الفلاحين المقيدين
كأحياء فى قائمة الاحصاء والتعداد .

ويقف مانيلوف مشدوها لايدرى ماذا يقول
ولا ماذا يفكر . هل فقد زائره قواه العقلية على
حين غرة ؟ ولكن ليس هناك مايدل على أنه يهذى
وعلى كل يستأنف تشيتشيكوف كلامه بعد لحظة
صمت :

— أريد أن أعرف اذا كان فى استطاعتك أن
تتنازل لى وتبيع وتجعل فى ملك يمينى بالطريقة التى
تراها أفضل فى نظرك ، هؤلاء الأموات فعلا ،
ولكنهم لا يزالون أحياء رسميا .. فاذا لم تر مانعا ،
نستطيع ، بفضل الله ، اعداد عقد البيع .

فيرد مانيلوف فى دهشة :

— عقد بيع .. لانفس ميتة !!

فيجييه تشيتشييكوف محمدا :

— خذ بالك معي ، سنذكرهم كأحياء كما هم في قائمة الاحياء والتعداد ، فأنا لم أعود أن أخالف القانون ، فالقانون مقدس في نظري ولا يسعني الا الانحناء أمامه !

وأمام تردد ودهشة مانيلوف ، يسأله المشتري في ثبات اذا كان لديه اعتراض على مايقول . فيرد قائلا :

— لا ! ليس لدى أقل اعتراض . وأنا واثق بك ولكن أسمح لي بسؤال : أليست هذه الصفقة أو بالأحرى هذا البيع مخالفا للنظم المعمول بها في روسيا وضد أحكامها العليا ؟

وبعد أن يؤكد له تشيتشييكوف أن الصفقة شريفة ، يضيف بأن مصلحة الضرائب ستربح أيضا بدورها من تحصيل رسوم التسجيل . وعندما يتبين أن الرجل قد هدأ روعه واطمأن ، يعود تشيتشييكوف الى حديثه فيقول :

— لاينقصنا الا الاتفاق على الثمن .

— فيصيح مانيلوف :

— الثمن ! هل تظن أنني أطلب مالا من أجل أنفس انتهى وجودها ؟ ومادامت هذه الفكرة العجيبة قد طرأت عليك ، فلا يسعني الا أن اتنازل لك بدون مقابل عن هذه الأنفس بل وأخذ على عاتقي أيضا رسوم التسجيل . وبعد أن اتصر على هذا المالك الأول الذي استسلم بسهولة ، يستأنف تشيتشييكوف بقية صفقاته . لقد وجد العجوز

كوروبوتشكا شديدة المراس نظرا لأنها غنيمة وشديدة الحذر ، اذ صاحت عندما سمعت عروضه :

— أنفس ميتة ؟ وما الذي ستفعله بها ؟

— هذا من شأني .

— ولكنها ميتة !

— وهل طلبت غير ذلك ! ان كونها ميتة هو الذي يجلب لك الضرر والخسارة : فانك تدفعين عنها ضريبة ، وأنا أريد أن أخلصك من هذا العبء ومن أية مصاريف ومن انشغال الفكر ، وأكثر من هذا فاني سأعطيك خمسة عشر روبلا . هل كلامي واضحا ؟

فردت العجوز :

— والله لا أدري ماذا أقول ؟ فلم أبع في حياتي أنفسا ميتة .. ونظرا لأن هذه هي أول صفقة لي من هذا النوع فأخشى أن أخسر فيها ، اياك أن تغشني ، فربما تساوى أكثر مما عرضته على !

فقال لها بصوت مستنكف :

وكم تساوى ! انها تحولت الى تراب . أفاهمة أنت ! تراب ! خذي مثلا خرقة قديمة ، ان لها قيمة ويمكنك بيعها لمصنع ورق . ولكن الأموات ! فيم ينفعون ؟ ومع كل ، فسأترك لك عظامهم النخرة وقبورهم : فنقلهم سيكون على الورق فقط .

ترددت كوروبوتشكا فترة من الوقت خوفا من هذه الصفقة الغريبة المعقدة . وأمام هذا التردد ، ثار تشيتشييكوف وأزبد وأرعد وأمسك بمقعد وضرب به الأرض بكل قوته . فصاحت العجوز : « لم تثور هكذا ؟ لو عرفت فيك سرعة الغضب لما عارضتك ، ليكن الأمر كما شئت . انني تنازلت

لك عنهم مقابل الخمسة عشر روبلا ، ولكن يا صاح ،
إذا احتجت لشيء من الدقيق أو الدسم أو العسل
أو القنب أو اللحم ، فاجأ الى ولا تنسى .

فتنه تشيتشيكوف ومسح عرق جبهته فى شيء
من الارتياح وقال :

ـ طبعاً ياسيدتى ، طبعاً بمشيئة الله .

أما نوزدريوف ، ذلك الرجل النزق المشاكس
الوقح ، فانه لم يكتف برفض طلب تشيتشيكوف ،
بل سيحتفظ له ، فيما بعد بمفاجأة قبيحة :
سيسكر خلال الحفل الذى سيعده المحافظ تشريفا
للمشترى الذى كاد ينتهى من صفقاته ، وسيهدى
قائلاً : « هل اشتريت كثيراً من الأنفس الميتة ؟ انك
تستحق الشنق ! انك سافل يا صاح ! سافل حقاً »
وسوف يضع هذا التعنيف بطلنا فى موقف حرج
لا يحسد عليه ، كما سيجعل القرية فى فوران .

ولكن لنترك هذا الحادث مؤقتاً ولنستبع
تشيتشيكوف فى جولاته . هاهو الآن يتحدث
الى سوباكيفيتش الذى يبالغ فى الثمن : انه يطلب
مائة روبل عن كل نفس ميتة . وعارض تشيتشيكوف
هذه القيمة وراح يستأذن فى الخروج ، وعندئذ
حاول البائع الجشع أن يقنع المشتري بهذه الحجة
الغريبة :

ـ لماذا تقتصر على فى الثمن ، أنا لا أطلب مبلغاً
فاحشاً . أى رجل غيرى قد يخدعك باعطاءك
قذارات بدل الأنفس . أما أنا ، فساورد اليك سلعة
مختارة ، أصحابها أبطال ومن بينهم أهل الحرف
ومهرة الصانع . خذ عندك مثلاً ميخيف الذى
اشتهر بصناعة العربات المزودة باللوالب بدمية وأمانة
ان عمله يكون دائماً متين التركيب .. وعندك

برويكاستيان النجار : وانى أراهنك على أنك لن
تجد مثله ، انه يشبه هرقل ! وميلوشيكين صانع
الآجر الذى يستطيع أن يركب لك موقدا فى أى
منزل ! ومكسيم تلياتنيكوف الذى يصنع لك
أحذية لامثيل لها فى غمضة عين !!

فقاطعه تشيتشيكوف بعد أن مل هذا الحديث
المتدفق قائلاً :

ـ مافائدة تعداد كل هذه الأسماء وتلك الصفات
مادام أصحابها قد ماتوا ولن يستطيعوا صنع أى
شيء !

فأجابه سوباكيفيتش وقد تنبه الى هذه
الملاحظة :

ـ لنفرض انك على حق ، ولكن قل لى : كيف
تسمى من هم لا يزالون على قيد الحياة فى قائمة
التعداد والاحصاء ؟ اتعتبرهم رجالاً ؟ لا ، انهم
مجرد حيوانات !

ـ ربما ، ولكنهم موجودون على قيد الحياة
على كل حال ، بينما الآخرون ليسوا الا مجرد
ذكرى ، مجرد حلم !

ـ لا ! لا ! ليس مجرد حلم ! اتجد رجلاً
مثل ميخيف هذا العملاق الذى يفوق الجياد قوة
أسمى هذا حلماً بعد ذلك !

وبعد مساومة طويلة استطاع تشيتشيكوف أن
يخفض الثمن الى روبلين ونصف عن كل نفس .
وأخيراً يذهب الى بليوشكين البخل الذى يملك
أكثر من ألف عبد ، ولكنه يعيش عيشة المتسولين
فى مسكن حقير تعمه القوضى . ويستطيع
تشيتشيكوف بكل سهولة اقناع ذلك الكهل
الشحيح بشراء مائة وخمس وعشرين نفساً ميتة

الى جانب سبعين آبهة مقابل مبلغ زهيد . انها صفقة طيبة حقا ! وبعد أن انتهى بطلنا من آخر مشترياته اتجه صوب فندقه منشرح الصدر ليعد كشف مقتنياته ، فاذا به يملك أربع مائة نفس لا ينقصها الا سداد رسوم التسجيل .

ولم يفت جوجول أن يعبر في أماكن مختلفة من كتابه ، عن حبه لوطنه وإيمانه بمستقبل مواطنيه ، الى جانب هذه المشاهد المضحكة المبكية في الوقت نفسه ، وتلك الشخصيات الكئيبة الجشعة . ولنذكر على سبيل المثال هذه الفقرة البديعة : « ما هذه القوة الجاذبة فيك يا روسيا ؟ لماذا ترن في أذني دون هواده هذه الأنشودة الحزينة التي ترددها البحار فتتهز لها الأرجاء الفسيحة ؟ ماذا يعنى هذا النداء الحنون الذى يستولى على مجامع النفس ؟ ماهذه الأصوات التي تنفذ الى أعماقي فتشقيها ؟ ماذا تخفيه من فأل هذه المساحات الشاسعة ؟ أفلا تستطيعين بحدودك المترامية أن تنجى عبقريا واسع الأفق مثلك ؟ ألسنت خير من ينجب الأبطال ، أنت التي تهين مجالات الحياة ؟ ان عظمتك الهائلة تكسبني حماسا وتهز مشاعري ، ان قوة خفية تكشف عن بصرى الغطاء . اه يا روسيا ! يا بلد الآفاق المنيرة التي لا يوجد على الأرض مثل سنا جلالك ! »

ان العمليات الشيطانية التي لجأ اليها تشيتشيكوف ، والتي كشف البعض عنها الغطاء ، مثل نذر يوف ، هزت البلدة الصغيرة وبعثت الرعب فى الأهالى . ولما رفض الملاك اعطاء أى بيانات فى التحقيق امعانا منهم فى اخفاء حماقتهم وبخلهم وجشعهم ، فقد لاكت الألسن مختلف الروايات التي راحت تتسرب هنا وهناك : أفلا يكون هذا الرجل الذى سبب اضطراب العقول وحسرك

الخيالات فى الاذهان لصا ماكرا داهية ؟ أو زير نساء ينوى اختطاف ابنة المحافظ ؟ أو قاطع طريق أو مزيف نقود هارب من وجه العدالة وتبحث الشرطة عنه . أفلا يكون مفتشا مكلفا بالتحقيق سرا فى عدة وفيات حدثت على أثر مشاجرة دامية أو على اثر وباء لم يتخذ ضده أى اجراء وقائى ؟ أفلا تكون ضحايا هذه المشاجرة وذلك الوباء تلك الأنفس الميتة التي يتكلم عنها الجميع ولا يدري أحد عن حقيقة أمرها شيئا ؟

ويقول جوجول : « ان جميع التحريات التي جرت بمعرفة موظفى الحكومة ، لم تصل بهم الا الى أنهم لا يعرفون أى شىء عن تشيتشيكوف ، مع أن تشيتشيكوف لا بد وأن يكون شخصا يستحق لفت الأنظار اليه . ولكن هل هو رجل يجب القاء القبض عليه وسجنه لنواياه الخبيثة ؟ أم رجل قادر على القاء القبض على المتهمين له وسجنهم جميعا كمشبوهمين ؟

وقررت السلطات ازاء هذا الرعب المتزايد ، وهذه البلبلة المستمرة ، عقد اجتماع غير عادى لاعادة الهدوء الى الناس . ولنستمع الى مايقوله المؤلف : « كانت تنقص هذه الجمعية تلك الصفة الهامة التي يطلق عليها البسطاء اسم قوة الادراك . تبدو هذه الاجتماعات ، بوجه عام ، مخالفة لذوق ومزاج الروس ، واذا لم تدر دفة هذه الاجتماعات شخصية قوية ، سواء بتقدها الفلاحون أو العلماء ، لتحولت الى فوضى . ولاسباب من الصعب تفصيلها ترجع الى المزاج دون شك ، فان الاجتماعات التي تلم شملنا هي التي تتم فى المنتديات ، أى بمعنى آخر . الاجتماعات التي تعقد من أجل الطرب والأطعمة الفاخرة ونحن هوائيون فتارة نؤسس الجمعيات الخيرية أو

لماذا نحكم بهذه القسوة على الآخرين ؟ ان الأندال غير موجودين فى أيامنا هذه ، لا يوجد الا الناس الطيبون الظرفاء .. فالعدالة تدفعنا الى تلقيب تشيتشيكوف « بالمشتري » ، ان حب الاقتناء هو أكبر جان على الناس حيث يدفعهم الى أعمال توصف بأنها « غير نظيفة » ، ولكن العاقل بدل أن يحقر هذا الفرد أو ذاك ، يمعن فى سيره واختباره وامتحانه حتى يكشف أصل دوافعه ، فالأهواء كثيرة ومختلفة . وسواء أكاف حقيرة أم نبيلة فانها تبدأ بالطاعة للانسان لتنتهى بالهيمنة عليه بشكل مخيف »

ان جوجول لا يمتدح بطله ولكن الحجج التى يضعها فى صالحه لا يمكن اهمالها ونستطيع تلخيصها على الصورة الآتية :

(أ) يشتري تشيتشيكوف أربعمائة رأس عبد بمبلغ زهيد ، هذا صحيح . ولكن ماهى قيمة هذه الرؤوس انها أصبحت من سكان العالم الآخر ؟

(ب) أليس بشرائه اياها يؤدى خدمة للبائع حيث يكفيه شرمؤونة دفع ضريبة تعسفية ؟
(ج) هل الملاك الغلاظ الاخساء الذين تعامل معهم يستحقون الرثاء لحالهم أو الرأفة بهم ؟ انهم يعلمون طيبا أن تشيتشيكوف يطلب منهم عبيدا أمواتا لا وجود لهم فى الحياة ومع ذلك يقبلون بيعهم !

(د) اليس من حق البطل أن يهزأ بمصلحة حكومية لاتزال تحتفظ ، بدافع التهاون والاهمال بأسماء الفلاحين المتوفين منذ زمن بعيد فى قوائم الاحصاء والتعداد ؟ وعندما يقوم برهنهم فهل المصرف يقاضيه أم يقاضى الحكومة التى أهملت القوانين ؟

التشجيعية وغيرها مما يعلمها الله ، بيد أن العمل الذى تقوم به ، مهما كان جميلا لاتتمه كما يجب . ويرجع هذا دون شك الى اعتقادنا أن المشروع متى قام كان دليلا على تأديتنا واجبا . فاذا اكتسبنا مثلا لمساعدة الفقراء ، أقمنا افتخارا بهذا العمل الجليل ، مأدبة لأعيان البلدة تمتص نصف الأموال المكتتب بها ، والنصف الآخر يدفع كمصاريف لمقر اللجنة وللتدفئة ولرواتب الحرس . فلا يبقى للفقراء الا خمسة روبلات ونصف ، تحتار اللجنة فى كيفية توزيعها نظرا لأن كل عضو فيها يريد أن يخص فقيره بالجزء الذى يروقه »

وعندما يرى تشيتشيكوف الماهر الماكر أن الناس يهتمون بشخصه المتواضع أكثر من اللازم ، ويشعر بأن أمره قد ينكشف ، يفضل الفرار من القرية فى سكون .

وفى نظر الكاتب - الذى نجح فى استمالة القارئ الى وجهة نظره - لا يمكن منطقيا اتهام تشيتشيكوف بعدم الاستقامة . فطموحه لا يتعدى عقلية بورجوازي طيب سليم القلب . فبطلنا لاتهمه العظمة ولا يطمع فى أن يكون فى ثراء قارون . ويقول جوجول : « لم يكن تشيتشيكوف متعلقا بالمال من أجل المال ، فلم يستسلم للبخل الدنىء ، ولكنه كان يحلم بحياة رغيدة : مسكن جميل وعربة فاخرة وطعام شهى ، هذا كل ما كان يدور فى رأسه . »

ان كل ما كان يصبوا اليه هو أن تكون له زوجة ونسل كثير ، وأن يتمتع بالرفاهية وباحترام جيرانه ويقول جوجول مستأنفا كلامه عن بطل قصته : « لاشك أنه رجل غير كامل الفضائل ، ولكن من هو هذا الرجل اذن ؟ هل هو نذل ؟ ولماذا نذل ؟

وامثالاً لما يدور فى هذه البلدة الصغيرة -
البلدة التى ترمز فى نظر جوجول الى روسيا برمتها
- فان تشيتشيكوف لا يركز على التعداد الحقيقى
وانما على التعداد الذى يقوم به الموظفون غير
الأكفاء المهملون الجهلاء ، واذا كان هناك جان ،
فليس تشيتشيكوف ، فى الواقع ، وانما السلطات
التى لم تقم بفرز الأحياء من الأموات . وكل ما يمكن
أن يقال هو أن تشيتشيكوف استغل هذه الفجوة
فى السلطة العامة واستفاد منها ، وهذه الافادة
ليست ثمرة عدم استقامته وانما ثمرة خياله
الخصيب وعقله المبتكر .

وعلى كل لماذا ركن تشيتشيكوف الى الفرار؟
ما الذى يخشاه ؟ أو قوفه أمام القضاء ؟ ان فى
استطاعة أصغر محام أن يبرئه لمجرد أن العملية
التى قام بها لم ينص القانون الجنائى عنها شيئاً
ولكن لا يجدر بنا أن نتعدى فكرة الكاتب . ان
العربة التى هرب عليها تشيتشيكوف وراح ينهب
بها الأرض فى سرعة جنونية ، هى صورة رمزية
لروسيا نفسها التى تبتعد عن الظلمات وعن الظلم
والاستبداد والتعسف سعياً الى النور والحرية
والتقدم والمدنية . ان روسيا تبحث عن النهضة
بحزم وعزم بعد أن عاشت قروناً طويلة فى ظل
الاستبعاد والعبودية ، انها تريد أن تلبس ثوبا
قشيباً ، تريد باختصار أن تغير نفسها الميتة بنفس
حية على حد قول جوجول المذكور فيما سبق
من الكلام .

ويختتم الكاتب قصته بقوله : « وأنت يا روسيا !
أفلا تطيرى كعربة الانزلاق على الجليد التى لا يمكن

لأحد أن يسابقها ؟ انك تمرين وسط زوبعة من
الغبار تاركة كل شىء وراءك ! والمشاهد يقف
مشدوها من فعل هذا العمل الالهى العجيب . هل
هى صاعقة هبطت من السماء ؟ ما معنى هذا السباق
المخيف ؟ وما هذه القوة الخفية التى تدفع هذه
الجياد التى لم ير العالم مثلها ؟ يا أيتها الجياد
العظيمة ! ماهذه الرياح التى تعبث بأعرافك ؟ يخيّل
الى أن أجسادك المرتعدة ترتقب شيئاً . وعندما
تسمع هذه الجياد الانشودة التى اعتادتها ، تنفخ
صدورها القوية وتعدو صفا واحداً ، فلا تكاد
سنايكها تلمس الأرض وهى تشق الرياح شقاً .

هكذا تطير روسيا بفعل الوحي الالهى . ولكن الى
أين تقصدين ؟ ردى على ! . ولكنها لا ترد ، وتضرب
الأجراس أنغامها الشجية ، ويشند النسيم فيصبح
ريحا . ان روسيا تطير ، مجتازة كل شىء ، تاركة
كل ما على الأرض بينما تفسح لها الأمم الاخرى
الطريق ، ناظرة اليها بعين الاعجاب متمنية للحاق
بها !»

ان هذه الرواية العجيبة الفريدة الغريبة تملأ
القلب انشراحاً وانقباضاً معاً . وتعتبر عملاً رائعاً
يكفى نفسه بنفسه . ولو كان جوجول صمّ لسوء
الحظ على اكمالها بالجزء الثانى لاضاع قيمتها
وقوتها وطعمها . لقد تغلبت فى هذا الرجل الجذاب
العبقري قوة النقد اللاذع المقنع ، على روح الوعظ
والارشاد ، لقد تغلب الفنان على المصلح المدعى ،
ولاشك أن كل هذا كان كسباً له وكسباً لنا .

أحمد رشاد